اللغة العربية جزء من هويتنا

أ. أسماء حمايدية

مقدمة:

تعتبر اللغة أول ثابت من ثوابت الهوية عبر الأزمنة والتاريخ، فهي العنصر المركزي والوحيد الذي جعل الناس" جماعة " واحدة ذات خصائص محددة ومتميزة بعاداتها وثقافتها وطقوسها وحضارتها وجغرافيتها (هوية)، ومن هنا كان هذا التلاحم بين اللغة والهوية إلى درجة أنه يتم الربط بينهما ويتماهيان إلى درجة تكاد تجعلهما شيء واحد.

وبالنظر الى اللغة العربية التي تعتبر أهم سمات هويتنا فهي اللغة الرسمية الاولى في أوطاننا العربية والاهم هي انها الغة التي حباها الله بالقرآن الكريم، إلا إن الاشكال يظهر وخاصة في المرحلة الراهنة بسبب انها لم تعد تواكب ركب الحداثة وتراجع استعمالها بشكل كبير نتيجة تغلب اللغات الاجنبية والعامية، وهو ما يجعنا نطرح سؤال : هل الخلل يكمن في لغتنا العربية لقصورها وعجزها ام في انفسنا وكيف لنا ان ننهض بلغتنا العربية ومن ثمة بهويتنا؟

أولا: جدلية العلاقة بين اللغة والهوية:

لقد قدم العلماء اكثر من تعريف للغة ومفهومها، ويرجع سبب كثرة التعريفات وتعددها الى ارتباط اللغة بكثير من العلوم، منها قول ابن جني:" أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم". واللغة نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية يتم بواسطتها التعارف بين افراد المجتمع، تخضع هذه الاصوات للوصف، من حيث المخارج أو الحركات التي يقوم بها جهاز النطق، ومن حيث الصفات والظواهر الصوتية المصاحبة لهذه الظواهر النطقية. وهي ظاهرة اجتماعية تستخدم لتحقيق التفاهم بين الناس، كما وتعرف على انها نشاط انساني يتمثل من جانب مجهود عضلي يقوم به فرد من االفراد، ومن جانب اخر عملية عملية ادراكية ينفعل بها فرد او افراد اخرون.١

و للغة عدة وظائف منها التواصل مع الغير والتمثل (Representation)، كما يقول سقراط تمييز لأشياء عن بعضها البعض، وتلقين بعضنا هذه الاشياء. ومنه تمييز الاشياء عن بعضها البعض يقصد به التمثل، إما تلقين احدنا هذه الاشياء فيعني التواصل.

اضافة الى هاتين الوظيفتين للغة هناك وظيفة اخرى تتعلق بالتعبير أو الانفعال(Expression)، حيث تكمن الاشياء المعبر عنها في المشاعر والعواطف، ولانفعالات التي عادة ما تصدر عن فرد او احيانا عن اثنية برمتها، أو عن تجمع آخر، إلا أن هذا كله مرتبط مباشرة بالجسد على خلاف التمثل والتوصل اللذين يمثلان عملية عقلية. والوظيفة التعبيرية والانفعالية للغة الانسان لها اهتمام عميق بتصور الذات الفردية، ومن ثم الهوية.٢

أما الهوية فهي في تعريف "الفارابي" (٢٦٠ه - ٨٧٤/٣٣٨م - ٩٥٠م) :"هوية الشيء: عينته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المتفرد له والذي لا يقع فيه إشراك."وعند الاستاذ "أمين معلوف" في كتابه الهويات القاتلة "Les identités meurtrières" فهو يقول :"هويتي هي ما يجعلني غير متماثل مع أي شخص أخر".

«mon identité, c'est ce qui fait que je ne suis identique à aucune autre personne ».٣

يذهب أيضا إلى أن الهوية هي الانتماء « l'appartenance » الرئيسي الوحيد الذي يستمر في مختلف الظروف أقوى من الانتماءات الأخرى، وقد يكون لدى البعض هو الوطن أو الدين أو الطبقة، ولكن حين نتفحص النزاعات القائمة ندرك أنه ما من انتماء له الغلبة بصورة مطلقة، فعلى سبيل المثال حين يشعر البعض بأنهم مهددون في عقيدتهم الإيمانية يرتفع الانتماء الديني مختصراً لهويتهم، ولو تهددت اللغة الأم أو جماعتهم الأثنية يمكن أن يواجهوا أبناء دينهم. يقول معلوف أيضا: (فالأتراك « les turcs » والأكراد « kurdes » مسلمون

لكنهما مختلفون في اللغة، فهل النزاع أقل دموية؟ الهوتو « les hutus » كما التوتسي « tutsis » هم من الكاثوليك، يتكلمون نفس اللغة، فهل منعهما ذلك من الاقتتال؟ التشيكيون « tchèques » والسلوفاك « slovaques » كاثوليك ايضاً فهل يسر ذلك العيش المشترك فيما بينهم؟.٤

وعليه يمكن القول بأن الهوية هي مجموعة من الأوصاف والسلوكات التي تميز الشخص عن غيره، وكما أن للفرد هوية فكذلك للمجتمع هوية وللأمة هوية، وهوية المجتمع تنطلق من أفراده، إذ للهوية علاقة أساسية بمعتقدات الفرد ومسلماته الفكرية وبالتالي تحدد سماته الشخصية وأطر سلوكه وتصرفاته، ويمكن لعدة إثنيات أن تشكل هوية واحدة يجمعها الدين أو اللغة، مثل الهوية العربية، والهوية الإسلامية.

وحسب الأستاذ "محمد صالح الهرماسي" أن الهوية عرضة للتبدل والتحول والتجدد في ملامحها، لكن بعض مكوناتها تميل إلى الثبات، وهذا ما نسميه بالمكونات الثابتة، كالدين واللغة. وحتى هذه لا تسلم من التغيير البطيء (تغير فهمها وتأويلها) ولكنها أقل تأثرا بالمتغيرات، لكونها تدخل في صلب العقيدة، وبعضها الآخر يميل إلى التغير، لأنه أكثر تأثرا بالمتغيرات، باعتباره يقع خارج مجال العقيدة مثل(العادات، التقاليد،...)٥

إذا فالعلاقة بين اللغة والهوية علاقة الجزء بالكل فاللغة مقوم أساس ومن مقومات الهوية وعليه نجد الأستاذة "لطيفة إبراهيم النجار" تقول :" ترتبط اللغة ارتباطا قويا بهوية الإنسان، فهي مكون أساسي من مكونات تميزه عن الآخرين، وتماثله مع من يشاركونه فيها، وهي الوعاء الحافظ لتاريخه وتراثه، وهي الرابط المتين الذي يربط الفرد بأمته وأهله وأرضه، فلا شيء كاللغة يعبر عن هوية الناس، ولعلها تكون الملحظ الأول الذي يصف الناس عند من يختلط بهم ويتحدث معهم".

وتظهر العلاقة بين اللغة والهوية بوصفها المكون والوعاء في آن واحد الذي يصون مكونات الهوية القومية فضلا عن كونها الرابط بين الفرد ووطنه وأمته، وأساس اتصاله مع الأمم الأخرى، فالإنسان لا يمكن أن يعرف إلا من خلال أهم مكون للهوية وهو اللغة.. ٦

ثانيا: اغتراب اللغة العربية في عصر العولمة

لغتنا العربية هويتنا فهي ليست لغتنا القومية فحسب ونحن لسنا مجرد ناطقين بها، انها لغة تتصل اتصالا وثيقا بعقيدتنا بكتابنا المقدس باحاديث نبينا محمد "صل الله عليه وسلم"، هي مصدر لثقافتنا و تراثنا، اعزها الله سبحانه الكريم بقرآنه العظيم فزاد شانها، لقوله تعالى:"ان انزلناه قرآن عربيا لعلكم تعقلون".

وعن عمر ابن الخطاب رضي الله قال :" تعلموا اللغة العربية فانها تثبت القلوب وتزيد المروءة ". وقال لشافعي رحمة الله عليه: " ما جهل الناس ولا اختلفوا الا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان ارسطو طاليس". بالفعل فما قاله الشافعي نشهده اليوم فالغة العربية اصبحت تعرف ازمة خطيرة، ففي وقت غير بعيد كانت هي لغة العلوم والادب والفنون، و ساهمت لقرون عدة في نقل المعرفة البشرية نقلة نوعية جعلتها حلقة وصل بين الحضارات القديمة التي ترجم المسلمون للعربية معظم معارفها ثم أثروها، والحضارة الغربية التي اقتبست من التراث العلمي الاسلامي الشيء الكبير خلال عصر الانوار منه ما ظل يدرس في الجامعات الغربية لغاية ق ١٩ ككتب ابن سينا في الطب والخوارزمي في الرياضيات وابن الهيثم في الفيزياء، وبقية موروثهم الفضل في عصرنا الحاضر.

لكن ولاسباب نحن تقريبا مصدرها هانت اللغة العربية بعدها، فلم نعد نتكلم بها كثيرا، حتى وان اضطرتنا المواقف كانت غريبة عنا متأبية على السنتنا. كما نلاحظ ان البعض عندما يتكلمون العربية تنفلت منهم مفردات أجنبية تكون الأسرع في التعبير عن المعنى، ذلك ليس لعجز اللغة العربية وانما لان اللغة الاجنبية مسيطرة على تفكيرهم لكثرة استخدامها فتكون أسبق في التعبير عن المعنى، والأمر من ذلك انها اصبحت تعرف على انها لغة التخلف والرجعية واللغات الاخرى لغة التقدم والحضارة٧

ويمكن ان نلخص التحديات التي تعترض لها اللغة العربية في ما يلي:

١- مزاحمة اللغات الاجنبية لها في كل مجالات الحياة
٢- مزاحمة العامية لها في التعليم والاعلام
٣- ايثار اللغات الاجنبية عليها في المحاضرات والندوات وبعض مراكز البحوث
٤- شيوع الاغلاط اللغوية عل السنة

المتعلمين والثقفين والمتخصصين

٥- التأثر بثورة الاتصالات التي احدثت تغييرا واضحا في حياة الاسر وفي لغتهم (اسلوبا وتحدثا وكتابة وتعبيرا). ٨

ثالثا: آليات النهوض باللغة العربية وهويتنا.

من أول الخطوات تحقيق الأمن اللغوي للغتنا العربية التنبه الى التحديات التي كنا قد ذكرناها سابقا والتغلب عليها أو الحد من تأثيرها على اللغة وذلك يمكن أن يكون من خلال إصلاح المنظومة التربوية في التعليم العام والتعليم العالي، إصلاحا جوهريا يمس الجوانب التربوية واللغوية والعلمية والاجتماعية، ويؤكد الحاجة الى قرار سياسي يقضي بجعل اللغة العربية لغة التعليم في جميع المستويات وان اللغة العربية لغة البحث العلمي ولغة جميع المؤسسات العلمية والعامة والخاصة في الدول العربية الى جانب أهمية اثراء المكتبة العربيى بالكتب العلمية تاليفا وترجمة، ولكن هذا لا يستبعد اللغات الاجنبية الاخرى لان من تعلم لغة قوم أمن مكرهم، كذلك ضرورة التزام الاعلام باللغة العربية الفصحى، وان يساهم في ترقية اللغة العربية، وان نحافظ على السلامة اللغوية وصونها من المزالق اللغوية ومزاحمة العاميات لها ٩

إضافة الى مقاومة اللهجات التي ما فتئت تكتسح المدرسة والاعلام فضلا عن الفضاءات العامة، فقضية اللهجات قضية قديمة قدم اللغة العربية، لكن ليست المشكلة في الداخل بل يجب ان يقتصر الخطاب الموجه للراي العام الذي يتجاوز حدود اللهجة على العربية الفصحي المشتركة التي يفهمها العرب من المحيط الى الخليج.

يجب التوفيق بين ضرورة الحفاظ على اللغة العربية كلغة اصلية وبين اكراهات الانفتاح والمرونة التي يطرحها استيعاب المستجدات على مستوى كافة المجالات المعرفة الانسانية، الامر غير مستحيل فمثلما يحافظ الصينيون واليابانيون والفرس على لغاتهم القومية يمكن لنا ان نسلك نفس الطريق، فهم نجدهم في المحافل الدولية يتكلمون لغتهم ويجبرون الاخرين على استخدام الترجمة، بينما نحن العرب نتكلم الفرنسية الانجليزية حتي يقال عنا اننا نفهم اللغات، اننا متحضرون، الفرق الوحيد بيننا هو في احترام اللغة.

كما لا يمكن للغة العربية ان تستوعب التطور العلمي بالخصوص مالم تكن شعوبها مواكبة للتطور التكنلوجي بمخترعاتها من فكرها و ذلك لتخول لها تسميتها بلغتها باعتبارها صاحبة القرار غير ان ما يفرض ديمومة اللغة العربية مع ما تشهده من اغتراب في وقتنا الرهن انما هو القران الكريم لقوله غز وجل :" انا نحن نزلنا الذكرى وان له لحافظون". فالقران الكريم محفوظ بحفظ اللغة العربية.١٠

خاتمة:

تعتبر اللغة العربية وطن لأمتنا العربية وخزان تراثها الفكري ووعاء ثقافتنا وأدابها وعلومها وحاملة هويتنا وشعائرنا في الماضي والحاضر والمستقل، فان تغيرت لغة تفكيرنا فسوف تؤثر لا محالة على سلوكاتنا ثقافتنا انماط عيشنا وتقاليدنا ومن ثمة هويتنا، وهذه هي التحديات التي تفرضها المرحلة الراهنة أو ما تعرف مرحلة العولمة، لذا وجد ايلاء الاهتمام باللغة وعم التفريط فيها والحد من التحديات والازمات التي تعرفها، ببناء منظومة تعليمية راسخة منطلقة من خصوصيتنا تراعي اللغة العربية كمقوم اساس في هويتنا، وجعلها لغة العلوم والابكار في مواجهة الاخر.

قائمة المراجع:

١ – عبد الله احمد جاد كريم حسن، اللغة العربية وترويض العولمة، على الموقع : www.alukah.net

– هشام محمود الأقداحي، العرق واللغة والهوية القومية، مصر: مؤسسة شباب الجامعة،٢٠١٠، ص ٤٠١. ٢

٣ – Amin Maalouf. Les identités meurtrières. France : Edition grasset & fasquelle. ١٩٩٨،p ١٦

٤ – Ibid ،pp ٢٠–١٩.

– محمد صالح الهرماسي، المرجع السابق الذكر، ص ٣٠. ٥

٦ – صالح النصيرات وباسم البديرات، "الهوية واللغة في البلدان العربية"، مجلة القراء والمعرفة، مصر، عدد ١٣٣، ٢٠١٣، ص ٢٠٥ .

٧ – حسام عقل، "اللغة العربية هويتنا"، برنامج كلام واضح مع الاستاذ مصطفي الازهري، ٢٠١٥,٠٥,٠٣

٨ – محود شاكر سعيد، خالد بن عبد العزيز الحرفش، مفاهيم الامن، الرياض: جامعة نايف العربي، ٢٠١٠ ، ص ٢٥

– نفس المجع السابق، ص ٢٥ ٩

١٠ – عبد الله موسي الطاير، الى اي مدي تستطيع اللغة العربية ان تستوفي التطور العلمي والفكري، على الرابط :
www.wise.qotar.org/edreview/ara.